قطار العمر

ركبتُ قطارَ العمرِ
ولم يكن لي في الركوبِ خَيارْ
زمنٌ عابثٌ مستبدٌ
يملكُ كل قرارْ
غيمةٌ تحملُ الغيثَ والوهمَ
دموعَ الفرحِ والحزنِ
لا تسمعُ نداءً ولا دُعاءً
ولا مدفعَ الافطارْ

ركبتُ قطارَ العمرِ
ولم يكن لي في الركوب خيارْ
سارَ القطارُ ليلَ نهارْ
في الليلِ سارْ
وفي النهارِ دارْ
وما أن صحوتُ من طفولتي
لأروي لَهفتي
حتى انتهى المشوارْ

ركبتُ موجَ البحرِ
موجٌ ساحرٌ غدارْ
هاجَ البحرُ
ثارَ الموجُ

غِبتُ عن الوعيِ
وغابت عن ناظري الأقمارْ
صحوتُ وفي الرأسِ دُوارْ
فغَدا النهارُ ليلاً
والليلُ نهارْ

أصغيتُ لصوتِ العقلِ
حيّرني وحارْ
خيّرني بين أزمنةٍ كثيرةٍ
قريبةٍ تُحيطُ بها الأوهامُ
بعيدةٍ تلفُها الأسرارْ
زمنٍ يئنُّ من وطأةِ الماضي
وزمنٍ عاقرٍ يُسايرُ الأحبارْ
وزمنٍ متمردٍ يُعاندُ الزمنِ
ويصنعُ من عِنادِهِ الأقدارْ

ركبتُ قطارَ الزمنِ
سافرتُ مع الأقدارْ
أفكارٌ تـتلاطمُ في رأسي
أحلامٌ تكبرُ في عيني
زرتُ ديارٌ بعد ديارْ
بيوتاً يَسكُنها علماءٌ بؤساءٌ
كهوفاً يسكنها ثوارٌ أحرارْ
قصوراً يسكنها ملوكٌ نبلاءٌ

وحكامٌ أشرارْ
أزقةً تسكُنها بناتُ الليلِ
ملاهيَ، مراقصَ، معابدَ
زوايا التصوفِ والزارْ
وعدتُ أحملُ حقيبةً زَمني
وقلادةً من الأوزارْ

غرقتُ في بُحورِ العلمِ
أنقبُ عن مُعجزات الكونِ
حاضناتِ الكواكبِ والأقمارْ
سلالات الطيورِ
ينابيع الشوق والأنهارْ
وعدتُ سعيداً أحمِلُ كتاباً
أعلمُ الشبابَ حُبَّ المعرفةٍ
تحكيمَ العقلِ والضميرِ
صُنعَ المستقبلِ والأقدارْ
طردوني مِن عَمَلي
وأهدوني طربوشَ وَقارْ

سرحتُ مع الفنِ
أحمل عصاً وطبلاً
ناياً حزيناً ومِزمارْ
أغني للجارِ بعد الجارْ
ضحك الأطفال مني

أشفقتُ على نفسي
حملتُ روحي على كتفي
توجهتُ نحو المطارْ
هارباً من الكبْتِ والجهلِ
أبحث عن حرية العقلِ
وعُذرية الأفكارْ
لم أكن أدري أن المطارَ اختفَى
وأصبحَ حَظيرةَ أبقارْ

جلستُ على دَربِ المآسِي
أتابعُ قُطعانَ المواشي
تسيرُ تائهةً في غابة بلا أشجارْ
أعمارٌ تعيشُ خارج الزمنِ
وأحلامٌ تعيشُ العمرَ انتظارْ

لم يشفعْ لي سفرٌ ولا عِلمٌ
فنّ ولا أشعارْ
وقبل أن ينتهي المشوارْ
تسلقت جبال المعرفة ببطء
جسور فوق جسور
تلامس في علوها الأقمارْ

نظرت من قمة الجبل من حولي
عالم عجيب تحيط به الأسوار

أغمضت عيني أتأمل رحلة العمر

أمسكت بطرف الجسر من شدة التعب

غفوت هنيهات واقفا

خانني الجسر

هوى من تحت أقدامي وانهار

د. محمد ربيع

www.yazour.com